خالد بن سعيد
فدائيٌّ من الرعيل الأول

فى بيت وارف النعمة، مزهُوٍّ بالسيادة، وَلِأبٍ له فى قريش صدارة وزعامة، يولد «خالد بن سعيد بن العاص» وإن شئتم مزيدًا من نسبه فقولوا: ابن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف...

ويوم بدأت خيوط النور تسرى فى أنحاء مكة على استحياء، هامسة بأن «محمدًا الأمين» يتحدث عن وحى جاءه فى غار حِرَاء، وعن رسالة تلقاها من الله ليبلغها إلى عباده، كان قلب «خالد» يُلْقى للنور الهامس سمعه وهو شهيد...!!

وطارت نفسه فرحًا، كأنما كان وهذه الرسالة على مَوْعِد.. وأخذ يتابع خيوط النور فى سيرها ومسراها... وكلما سمع مَلأ من

قومه يتحدثون عن الدين الجديد، جلس إليهم وأصغى فى حبور مكتوم، وبين الحين والحين يُطعّم الحديث بكلمة منه، أو كلمات تدفعه فى طريق الذيوع، والتأثير، والإيحاء..!

كان الذى يراه آنئذ، يبصرُ شابًّا هادئ السَّمْت، ذكىَّ الصمت، بينما هو فى باطنه وداخله، مهرجان حافل بالحركة والفرح.. فيه طبول تدق.. ورايات ترتفع.. وأبواق تدوِّى.. وأناشيد تُصلى.. وأغاريد تسبِّح..

عيدٌ بكل جمال العيد، وبهجة العيد وحماسة العيد، وضجة العيد..!!!

وكان الفتى يطوى على هذا العيد الكبير صدره، ويكتم سرَّه، فإن أباه لو علم أنه يحمل فى سريرته كل هذه الحفاوة بدعوة محمد، لأزهق حياته قربانًا لآلهة عبد مناف..!!

ولكن أنفسنا الباطنة حين تفعم بأمر، ويبلغ منها حدّ الامتلاء فإنها لا تعود تملك لإفاضته دفعًا..

وذات يوم...

ولكن لا... فإن النهار لم يطلع بعدُ، وخالد ما زال فى نومه اليقظان، يعالج رؤيا شديدة الوطأة، حادة التأثير، نفاذة العبير..

نقول إذن: ذات ليلة، رأى خالد بن سعيد فى منامه أنه واقف على شفير نار عظيمة، وأبوه من ورائه يدفعه نحوها بكلتا يديه، ويريد أن يطرحه فيها، ثم رأى رسول الله يقبل عليه، ويجذبه بيمينه المباركة من إزاره فيأخذه بعيدًا عن النار واللَّهب...

ويصحو من نومه مُزَوَّدًا بخطة العمل فى يومه الجديد، فيسارع من فوره إلى دار «أبى بكر»، ويقصُّ عليه رؤياه... وما كانت الرؤيا بحاجة إلى تعبير..

وقال له أبو بكر:

«إنه الخير أُريد لك... وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه، فإن الإسلام حاجزُك عن النار».

وينطلق «خالد» باحثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يهتدى إلى مكانه فيلقاه، ويسأل النبىَّ عن دعوته، فيجيبه عليه السلام:

«تؤمن بالله وحده، لا تشرك به شيئًا..

وتؤمن بمحمد عبده ورسوله... وتخلع عبَادة الأوثان التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضرُّ ولا تنفع»...

ويبسط خالد يمينه، فتلقاها يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى حفاوة، ويقول خالد:

«إنى أشهد أنْ لا إلهَ إلا الله...

وأشهد أن محمدًا رسول الله».. !!

وتنطلِق أغاريد نفسه وأناشيدها..

ينطلقُ المهرجان كله الذى كان فى باطنه... ويبلغ النبأ أباه.

* * *

يوم أسلم سعيد، لم يكن قد سبقه إلى الإسلام سوى أربعة أو خمسة، فهو إذن من الخمسة الأوائل المبكرين إلى الإسلام.

وحين يُبَاكرُ بالإسلام واحد من ولد سعيد بن العاص، فإن ذلك - فى رأى سعيد - عمل يعرضه للسخرية والهوان بين قريش، وهزُّ الأرض تحت زعامته.

وهكذا دعا إليه خالدًا، وقال له: «أصحيح أنك اتبعت محمدًا وأنت تسمعه يعيب آلهتنا»...؟؟

قال خالد:

«إنه والله لصادق..

ولقد آمنت به واتبعته»..

هنالك انهال عليه أبوه ضربًا، ثم زجَّ به فى غرفة مظلمة من داره، حيث صار حبيسهَا، ثم راح يُضْنيه ويُرهِقُه جوعًا، وظمأً...

وخالد يصرخ فيهم من وراء الباب المغلَق عليه:

«والله إنه لصادق، وإنى به لمؤمن»..

وبدا لِسَعيد أن ما أنزل بولده من ضُرٍّ لا يكفى، فخرج به إلى رمضاء مكة، حيث دسَّه بين حجارتها الثقيلة الفادحة الملتهبة ثلاثة أيام لا يُوَارِيه فيها ظلّ..!!

ولا يبلل شفتيه قطرة ماء..!!

وبئس الوالد من ولده، فعاد به إلى داره، وراح يُغْريه، ويرهبُه.. يعِدُه، ويتوعَّده.. وخالد صامد كالحق، يقول لأبيه:

«لن أدع الإسلام لشىء، وسأحيا به، وأموت عليه»..

وصاح سعيد:

«إذن فاذهب عنى يا لُكَع، فواللَّاتِ لأمنعنك القوت»..

وأجابه خالد:

«... واللّهُ خيرُ الرازقين»..!!

وغادر الدار التى تَعجّ بالرَّغَد، من مطعم ومَلْبس وراحة.. غادرها إلى الخصاصة والحِرمان..

ولكنْ أىّ بأس..؟؟

أليس إيمانُه معه..؟؟

ألَمْ يَحتفِظ بكل سيادة ضميره، وبكل حقه فى مصيرِه..؟؟

ما الجوعُ إذن، وما الحرمان، وما العذاب..؟؟

وإذا وجد إنسان نفسه مع حق عظيم كهذا الحق الذى يدعو إليه محمد رسول الله، فهل بقى فى العالم كله شىء ثمين لم يمتلكه من رَبح نفسه فى صَفقةٍ، اللّهُ صاحبُها، ووَاهِبُها..؟؟

وهكذا راح «خالد بن سعيد» يقهر العذاب بالتضحية، ويتفوَّق على الحرمان بالإيمان..

وحين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه المؤمنين بالهجرة الثانية إلى الحبشة، كان خالد بن سعيد، ممَّن شدُّوا رِحالهم إليها..

ويمكث «خالد» هناك ما شاء الله أن يمكث، ثم يعود مع إخوانه راجعين إلى بلادهم، سنة سبع، فيجدون المسلمين قد

فرغوا لتوِّهم من فتح خيبر..

ويقيم «خالد» بالمدينة وسط المجتمع المسلم الجديد الذى كان أحد الخمسة الأوائل الذين شهدوا ميلاده، وأسَّسوا بناءه، ولا يغزو النبى غزوة، ولا يشهد مشهدًا، إلا و«خالد بن سعيد» فى السابقين..

وكان «خالد» بسبقِه إلى الإسلام، وباستقامة ضميره ونهجه موضع الحب والتكريم..

كان يحترم اقتناعه، فلا يزيفه ولا يضعه موضع المساومة..

قبل وفاة الرسول جعله - عليه السلام - والياً على اليمن..

ولما ترامت إليه أنباء استخلاف أبى بكر، ومبايعته، غادر عمله قادمًا إلى المدينة..

وكان يعرف لأبى بكر فضله الذى لا يُطاول..

بيد أنه كان يرى أن أحق المسلمين بالخلافة واحد من بنى هاشم: «العبّاس» مثلا.. «أو على بن أبى طالب»..

ووقف إلى جانب اقتناعه، فلم يبايع أبا بكر..

وظلَّ أبو بكر على حُبه له، وتقديره إياه، لا يُكرِهُه على أن

يُبايع، ولا يَكرهُه لأنه لم يُبايع، ولا يأتى ذكره بين المسلمين إلا أطراه الخليفة العظيم، وأثنى عليه بما هو أهلهُ..

ثم تغير اقتناع خالد بن سعيد، فإذا هو يشق الصفوف فى المسجد يومًا وأبو بكر فوق المنبر، فيبايعه بيعةً صادقة وُثقَى..

* * *

ويُسَيِّرُ أبو بكر جيوشه إلى الشام، ويعقد لـ «خالد بن سعيد» لواءً، فيصير أحد أُمراء الجيوش..

ولكن يحدث قبل تحرُّك القوات من المدينة أن يُعارض «عمر» فى إمارة «خالد بن سعيد»، ويظَلُّ يُلِحُّ على الخليفة حتى يغير قراره بشأن إمارة خالد..

ويبلغ النبأ خالدًا، فلا يزيد على أن يقول:

«واللّهِ، ما سرَّتنا ولايتُكم، ولا ساءنا عَزْلُكم».. !!

ويخفُّ الصِّدِّيق رضى الله عنه إلى دار خالد معتذرًا إليه، ومفسرًا له موقفه الجديد، ويسأله مع مَنْ مِنَ القواد والأمراء يحب أن يكون: مع عمرو بن العاص - وهو ابن عمه -؟ أم مع شرَحبيل بن حسنة؟

فيجيب خالد إجابة تنمّ على عظمة نفسه وتُقاها:

«ابن عَمِّى، أحبُّ إلىَّ فى قرابته، وشُرَحبيل، أحبُّ إلىَّ فى دينه»..

ثم يختار أن يكون جنديًّا فى كتيبة «شُرَحبيل بن حسنة»..

* * *

ودعا أبو بكر «شُرَحبيل» إليه قبل أن يتحرك الجيش، وقال له:

«انظر خالد بن سعيد، فاعرف له من الحق عليك، مثل ما كنت تحبُّ أن يعرف من الحق لك، لو كنت مكانه، وكان مكانك..

«إنك لتعرف مكانته فى الإسلام..

«وتعلم أن رسول الله توفى وهو له والٍ..

«ولقد كُنتُ ولَّيتُه، ثم رأيتُ غير ذلك..

«وعسى أن يكون ذلك خيرًا له فى دينـه، فما أَغْبِطُ أحدًا بالإمارة..!!

«وقد خيرتُه فى أُمراء الأجناد، فاختارك على ابن عمه...

«فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التَّقى الناصح، فليكن أولَ من تبدأ به: أبو عبيدة بن الجرّاح، ومُعاذ بن جبل.. وَلْيَكُ خالد بن سعيد ثالثًا؛ فإنك واجدٌ عندهم نُصحًا وخيرًا..

«وإياك واستبداد الرأى دُونهم، أو إخفاءه عنهم»..

وفى موقعة «مَرْج الصُّفَر» بأرض الشام، حيث كانت المعارك تدور بين المسلمين والروم، رهيبة ضاربة، كان فى مقدمة الذين وقع أجرُهم على الله، شهيد جليل، قطع طريق حياته منذ شبابه الباكر حتى لحظة استشهاده فى مَسيرَةٍ صادقة مؤمنة شُجاعة..

ورآه المسلمون وهم يتفحصون شهداء المعركة، كما كان دائمًا، هادئ السَّمت، ذكىَّ الصَّمت، قوىَّ التصميم، فقالوا:

«اللهم ارض عن خالد بن سعيد».. !!!